

الألعاب العريضة

للأستاذ محمد محمود زيتون

— ٣ —

رأيتنا في المقال السابق كيف التفت التربية البدنية بالتربية الدينية عند مبدأ الإخاء حيث تعد الألفة بين المتلاعبين . ويحرص النبي عليه الصلاة والسلام على أن يكون الناس في جدم ولهم إخوانا وزملاء فهو الفائل « تأخوا في الله أخوين أخوين » . والقائل « لو يعلم الناس ما في الوحدة ما أهد ما سار راكب بايل وحده » ولهذا كان المسلمون في شتى مراحل الدعوة الحمدة أخوين أخوين .

وخرج عمر بن الخطاب يوما في سفر فقال لمن كان معه « ألا تاملون » وزامل بين كل اثنين .

وحول هذا المحور من الإخاء دارت الألعاب الإسلامية فكان دورها حلقة ذات مكانة مرموقة في تعاليم الإسلام ؛ ذلك الدين الذي ألان من عفوان عمر حتى قال « ينبغي للرجل أن يكون في أهله كالصبي فإذا التمس ما عنده كان رجلا » وكذلك حقا كان عمر مع أولاده الصغار فقد كانوا يركبونه ويسحبونه ويسوقونه وهو أمير المؤمنين وقامح الأمصار ، وما كان أسمه بهذه اللحظات من اللهم البري الذي هو اللب المشروع من غير تناقض مع وقار الخليفة وجلال الخلافة ، فلما دخل عليه أحد الولاة ورآه على هذا الفجر الذي ذكرنا استنكره منه وعندما سأله عما يفعله هو في بيته قال بما يفيد جفوته مع أهله فمزله أمير المؤمنين .

ومن هذا الباب أيضا ما قاله علي بن أبي طالب « سلوا هذه النفوس ساعة بعد ساعة فإنها تبدأ كإبصار الحديد » وهل تكون هذه التسلية إلا باللهو واللهم الذين هما جلاؤها وصقلاها ؟

وفي هذا يقول أبو الدرداء الصحابي الجليل « إني لأستجم نفسي ببعض اللهو ليكون ذلك عوناً لي على الحق » .

ولما كان من أغراض التربية الكاملة تهذيب النفس بترويض الأعضاء على الفنون والصناعات فإن القاعين على شؤون التلميم قد فرضوا دروس الأشغال في المدارس ، وبهذا اللون من التربية اليدوية اتسمت حياة النبي الكريم .

سئلت عائشة : كيف كان النبي إذا خلا في بيته ؟ فقالت : كان ألين الناس وأكرم الناس ؛ وكان رجلا من رجالكم إلا أنه كان ضحاكاً بساماً .

وسئلت : ما كان يصنع في بيته ؟ فقالت : ما يصنع أحدكم : يرفع ثوبه ويخشف (يخرز) نعله ويعمل ما تعمل الرجال في بيوتهم فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة ؛ وكان يعمل عمل البيت وكثر ما يعمل الخياطة .

وكان رسول الله (ص) يضر الخيل ليسابق بهاء وهو الذي جعل للسباق حدوداً لا يتعداها لهو المؤمن إذ قال « لا سبق إلا في خف أو حافر أو نعل » وما أرفع الغاية التي ينشدها نبي الإسلام المؤمن إذ يقول لهم « الهوا والسبوا فإنني أكره أن أرى في دينكم غلظة » وتلك من غير شك غاية التربية البدنية ، وما أنبلها من غاية .

وتقول عائشة أيضا : كان رسول الله يخرز الخيل ويكفها .

وسواء كانت هذه الصناعات اليدوية الصغرى مقصودة لذاتها أو مجرد اللهو وسداً لأوقات الفراغ أو مقصودة للكسب المادي فإن كلا الأمرين شريف ومشروع وإن كنا لا نزال نعتقد أنها من ألزم اللزوميات لكل الناس ولا سيما ذوي الهيات . ونحن نعلم عن مستر تشرشل وقد كان ولا يزال من مديري دفة السياسة البريطانية بل العالمية أنه من المفرمين بالرسم وكثيرا ما يذهب إلى سويسرا لرسم المناظر الطبيعية بريشة الفنان بحيث يستجم لنفسه في مهمته السياسية وما أنقل أعباءها .

وعندنا نحن من النماذج الإسلامية ما يراحم الرؤوس السكبار بما كان لها من أثر فعال في تغيير وجه التاريخ تغييراً شاملاً ؛ فهذا حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء وقد عرف عنه أنه كان يذهب وحيدا بميدا في سيد الوحوش السكواير وطالما طالع أهل مكة بقوامه الفارع وشبابه المتوثب وهو يتقلد سيفه يتنكب قوسه وينتفضي في يده السهام ويختصر الحراب .

وكان عمر من المهتمين بالتربية عن طريق الأشغال اليدوية والألعاب الرياضية إذ يقول « من خط وخاط وفرس وعام فذاكم الغلام » وبهذا لم يهمل هذا النوع من الأشغال الذي يسمى بالإنجليزية Hobby (هوبى) . وكان رسول الله يشجع على توجيه الصغار نحو مشاهدة الطبيعة وتأمل الأحياء ؛ فقد دخل على أم أنس بن مالك فوجد ابنها أبا حمير حزينا مشتما فقال لها : « يا أم

وذهبت عائشة يوما إلى عرس في بيت الأنصار فلما رجعت سألتها النبي : « أهديت الفتاة إلى بماها ؟ » قالت : نعم قال : « فبشتم معها من بنى ؟ » قالت : لا . قال : « أوما علمت أن الأنصار قوم يمجهم الغزل ! ألا بشتم معها من يقول :

أنيذاكم أتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الحبة السمرا لم نحال بواديكم

والعرب تطلق كلمة (القلس) على الرجل يلعب نين بدي الأمير إذا قدم المعسر .

والمداعبة والمضاحكة مما يدخل في باب اللهو واللعب بغية التسلية والترفيه ، كما كان يفعل النبي ، فقد قال لمجوز : « إنه لا يدخل الجنة مجوز » فزنت ، ولكنه لم يلبث أن تلا عليها قول الله تعالى « عربا أربا » فضحكك واستبشرت . لأنها سترت في الجنة صغيرة السن عذراء حسناء ، وذلك ما تتمناه المرأة للطبع الركب فيها .

وليس المزاح من المداعبة في شيء ، لانه من أسوء الأثر في النفس ، لهذا نهى النبي عنه . ويرى أن رجلا أخذ نعل رجل ففيتها وهو يمزج فذكر ذلك للنبي فقال : « لا تروءوا للمسلم فإن روعة المسلم ظم عظيم » وقال في حديث آخر « لا يأخذن أحدكم متاع أخيه لاءبا ولا جادا » كأنه يهوى عن المزاح بالسلاح فقال : « لا يشر أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعل الشيطان يترع في يده فيقيم في حفرة من النار » .

وكان الإسلام حريصا على صيانة المباحة من الابتذال ، فحرم على النساء أن يسبحن فاريات حتى لا تكون فتنة . ولما دخلت الحما مات بلاد العرب وضع رسول الله حدودها فقال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بإزار ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل حليلته الحمام » وقال « شر البيوت الحمام ترفع فيه الأصوات وتكشف فيه العورات » ودخلت نسوة من الشام على عائشة فقالت لهن : أنن اللاتي تدخلن نساء كن الحمامات . سمعت رسول الله يقول : « ما من امرأة تضم ثيابها في غير بيت زوجها إلا هتكت السر بينها وبين ربها »

سلم ما بال أبي عمير حزينا ؟ » قالت : يا رسول الله مات نغيره (عصفوره) فتلفت النبي إليه وقال : « أبا عمير ما فعل النغير ؟ » وكان كما رآه قال له مداعبا .

ولا شك أن نوع الامة تحدده الغريزة الجنسية . كما أنها تستجيب لغريزة حب الاستطلاع ، ثم هي مجال طبيعى بتعرف فيه النائي على خصائص الحيوان . وفيه تمتد آفاق الخيال ، وتتكشف الانفعالات والمواطف نحو الحياة والأحياء في أبسط صورة .

وغريزة اللعب هذه ملازمة للإنسان من المهد إلى اللحد لا تبرح سلوكه ولا ينفك عنها نشاطه . فلا تمارض بين اللعب والسن منها يكن من هيبة ووقار .

فقد دخل النبي على عائشة وعمرها تسع سنين ، وكانت لميتها في بدنها ، ومما صوابها في أرجوحة بين نخلتين ، فأزلتها أمها من الأرجوحة لترفعها إلى رسول الله .

ولم تنس عائشة لميتها بد أن أصبحت زوجة فهي تقول « قدم رسول الله من غزوة تبوك أو حنين فهبت ريح فكشفت ناحية من ستر على صفة في البيت عن بنات لي فقال : ما هذا يا عائشة ؟ قلت : بناتى ، ورأى بينهن فرسا لها جناحان من رفاع . قال : وما هذا الذى أرى وسطهن ؟ قلت : فرس . قال : وما هذا الذى عليه ؟ قلت : جناحان . قال : جناحان ؟ قلت : أما سمعت أن سليمان خيلا لها أجنحة ؟ فضحك حتى بدت نواجذه »

والإسلام يقر اللهو البرى الذى لا يفسد الطبع ولا يعصرف عن الجد ، وما أصدق روح الإسلام في بيت البارودى إذ يقول :
سواى بتحنان الأغاريد بطرب وغيرى بالذات يلهو ويلعب
إلى ما في هذه القصيدة من اعتزاز بالدأب على طلب العلا ، واختيار بنفس أوبة لها بين أطراف الأسنة مطلب ، ولها مع الوحوش صراع ، فلا عجب إذا أصغرت هذه المهمة كل مأرب . واستقبلت جوريات بنى النجار رسول الله بالمدينة بالأناشيد والمنازف ؛ كما أخذ الأحباش يلعبون بالحرايب بين يديه ، وأخذت جاريتان تضربان بالنف في بيته فلم يفكر عليهما ذلك حتى إذا دخل أبو بكر منعهما فقال له النبي : دعهما يا أبا بكر فإن لكل قوم عيدا .

الإيمان كان لاسير بها قدما نحو الشرف والرفعة ، حتى إذا لم يمد في الطائفة مكان ، استسلم المرء للأواقع المريرة ، وفي القلب الكسير حمرة على الماضي القوي ، والشباب العصبي ، فذلك قول شيخ العرب ، وقد ذوى عوده ، وانطوى ظله :

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا
والذئب أخشاه إن صررت به وحدى وأخشى الرياح والطرا
من بعدما قوة أعز بها أصبحت شيخا أعالج الكبرا
ولو شاء العربي أن يرمز إلى الحياة الجاهمة فإنما تكون نفسه
أقرب ما يسمقه إلى غرضه ، بل تكون « الناقة » أقرب إليه وإلى الحياة من نفسه ؛ فهي محور الأرض والسماء ، ومرصد الشاهد والغائب ، ومدار القوة والضعف ، ومقياس الشرف والصفة ، ورمز العافية والضياع . ولهذا كان أغلب التعميرات المربية عن النفس مشتقة من الناقة التي هي سفينة الحياة . وطالما كفى بها العربي عن نفسه في كل مظاهر الشعور . . .

فكان العقل من قولهم : عقل البعير ، والعقل والعقال ما يعقل ؛ والمائلة هي المائلة أي القبيلة لأنها تعقل البعير في أداء الدية عن المتدى الأنيم من أفرادها . وما أبرع تورية النبي لصاحب الناقة إذ قال « اعقلها وبوكل »

والعربي يرضى لنفسه العنان كما يفعل بناقته ثم يأخذ شكيمتها ويكبح جراحها . ويذجرها عن هواها ، ويثنيها عن غريها ويثبوسها ويأخذ بناصيتها ، ويمتلك سنامها ، وتعمل نفسه إلى ولده متأثرا بحنين الناقة إذا طربت في أثر ولدها ، وإذا أناخها فبركت ، فإنما هي نفسه التي ينيخها فتبرك ، وكذلك حين يسوقها ويتودها ، ويحشها ويحدو لها فهي ذلول لا شرود ، مادام في يده خطامها يشد عليها زمامها ، فيلزمها غرز الفضيلة وتنص به في ركاب الفضلاء ، رائده الخير لها ، ينتجمه صادرا وواردا .

تلك هي حياة العربي الذي يتخذ من الناقة سفينة إلى ممالى المثل ومكارم الأمور ، حتى إذا نفص يديه من خطام دنياه لم يكن له فيها ناقة ولا جمل ، لا يتخذها فيها خضراء الدمن .

ولعمري إن الإنسان الذي يتوصل إلى ما يلبسه العربي من مجد لأحق بالتهجير والتخليد ، وحسبه شرفا أنه سلك كل وعمره

ويوم أن سار العرب في حمايتهم على هدى التعاليم الإسلامية صانوا كرامتهم ، وشهد لهم جوستاف لوبون في كتابه « حضارة العرب » فقال « حمامات الشرق أفضل من حمامات الغرب صحة وراحة ؛ وهي عدا ذلك محل للاجتماع والمحادثة ولا تقل شأنا مما كان لها أيام الرومان »

والخلاصة أن الإسلام عندما أقر البرى من ألعاب العرب وشذب بعضها لم يهدف إلى اكتناز المضلات وصلابة العود ، ولم يقصد إلى إطالة العمر ، ولم يدفع إلى المضارة على الضعيف بالتذرع بحجج أوهى من نسيج المنكبوت مثل « شعب الله المختار » وإنما وضع الرياضة البدنية موضع الاعتبار بأن جعلها « تربية » ذات غرض نافع وهدف رافع .

كان عصر إسيرطة يمد الفتیان للحرب كفاية تقصد لذاتها ، وكان أبناء الرومان يقاتلون زمهرير الشتاء وذل النفس لينشأوا قساة القلوب غلاظ الأكباد ، أما الإسبان فقد جرت دماء الوحشية في عروقهم إذ اتخذوا من « مصارعة الثيران » مسلاة وملهامة ، كلما راوا اللاعب ينجم من غدر خصمه (الثور) عاجله بطعنة من خنجره فيختر مضرجا بدمائه .

والحق في جانب العرب في الحكم لهم بارتفاع الفريزة عما يشينها من حيوانية صارخة وشهوة عارمة ، فهم قد عرفوا رياضة الإنسان وترويض الحيوان ، فلما طالعهم الإسلام أحل الله لهم صيد البر والبحر وحتم على الرفق في الأمر كله ، ونهاهم عن المثلة ولو بالكلب المغرور فكانوا طرازا نادرا في البطولة والرجولة .

طيروا الحمام الزاجل إلى بلد لم يكونوا بالفيه إلا بشق الأنفس . وأملقوا الصقور بين يدي نبالهم تنقض على الصيد اللباج ، وامتلكوا نواصي الخيل . واعتلوا سهوانها . فأكرموها غاية الإكرام وركبوا سفينة الصحراء تشق بهم الوهاد والنجاد . وتربصوا للأسود الضاربة والأفاعى الحاوية ، فصرعوها في كهوفها ، فتطهرت السبل من أذى الإنس والجن .

وكانت ألعاب العرب في جانبها وتفصيلها مسيطرة لمطالب الطبع البشري ، فلم يهزروا الفريزة قهرا ، - ولو أرادوا لقموا - ولم يهزبوا من الطبع الفلاب ، بل واجهوا الحياة بما هو في